

تونا الجبل : ميلاد مُتجدد للحضارة المصرية طلعت رضوان

تلقيت دعوة من د. مرفت عبدالناصر لحضور افتتاح المركز الثقافي الحضارى الذى أسسته بمجهوها الفردى وتم إشهاره برقم 7659 عام 2009 باسم (مؤسسة د. مرفت عبدالناصر للإبداع والتنمية الثقافية) فى مدينة ملوى بمحافظة المنيا .

ونظراً لأنّ د. مرفت تخصصت فى علم المصريات على أسس علمية ، لذلك كان اختيارها للموقع عن تخطيط ووعى بتفرده وأهميته فى تاريخ الحضارة المصرية ، إذ أنّ تونا الجبل ومعها آثار الأشمونين ، لهما دور بارز فى تاريخ مصر القديمة ، حيث نشأ الارتباط باسم أحد أهم الرموز المصرية (تحوت) أوجوتى وفق النطق اليونانى ، بصفته رمز الحكمة والفكر والكتابة. وكما جاء فى الملخص الذى وزعته د. مرفت فإنّ هذا الموقع فى تاريخ مصر القديمة كان قلعة فكرية قصده الباحثون عن العلم من مختلف دول العالم القديم من أجل البحث عن المعرفة ، لدرجة أنّ فلاسفة اليونان أطلقوا عليه اسم هرموبولس نسبة ل (هرمس) المرادف الإغريقى ل (تحوت) كما أنه قريب جداً من موقع يهتم به أبناء العالم المتحضر فى عصرنا الحالى ، أى مدينة أختاتون التى أخذت تسمية عربية (تل العمارنة) وهى المدينة التى اختارها أمن – حوتب الرابع (أختاتون) (1372-1354 ق.م) لنشر ديانتها الجديدة المؤسسة على فكرة الإله الواحد ، وهو ابن أمن – حوتب الثالث وزوج الملكة نفر تيتى . ورغم معارضة الأمونيين للآتونية التى بشر بها أختاتون ، فإنّ عهده شهد نهضة فكرية أثرت فى مجمل التراث العالمى ، بجانب نهضة بارزة فى مجال الفن التشكلى . كما أنّ (تونا الجبل) قريبة جداً من مقابر أسر الدولة الوسطى فى (بنى حسن) التى (تمتلك خصوصية متميزة بجدارياتها الفنية رفيعة المستوى وموقعها الجغرافى الرائع . وهذه المنطقة أيضاً ذات تراث قبلى / مسيحى ، له أهمية خاصة ، لارتباطه برحلة العائلة المقدسة إلى مصر ، وأقدم الأناجيل فى العالم . ولهذا المكان صلات وطيدة بمكتبة نجع حمادى . كما أنّ موقع تونا الجبل له صلات بمدينة (أخميم) التى اشتهرت بعلمائها وفلاسفتها خاصة بعد الإسلام)

ظلّ هذا الموقع التاريخى ينبض بالحياة (فى حالة أشبه بالغيوبية أو الموت السريرى) رغباً عن صديد وصدأ الإهمال النابع من غياب الوعى القومى بمجمل التراث المصرى الذى تركه لنا جدودنا. ترتّب على هذا أنّ السياحة الأثرية فى هذه المنطقة ضئيلة لدرجة تقترب من العدم ، فالوصول إليها أشبه بمغامرة انتحارية ، حيث الصخور والرمال فى طرق غير مرصوفة وسط الجبال ، ولكن السبب الكارثة هو انعدام الدعاية المؤسسة على علمى المصريات والآثار. لذلك كانت د. مرفت محقة إذ كتبت ((على الرغم من كل هذا الثراء الذى تتميز به هذه المنطقة ، إلاّ أنه لا يمكن بسهولة لأى مهتم بالأمر زيارة تلك الأماكن واستشعار عظمتها الفكرية والروحية. بل إنّ محافظة المنيا بأسرها ظلّمت كثيراً سياحياً ، خاصة فى الآونة الأخيرة ، مما كان لهذا الأمر أبلغ الأثر على المناخ الثقافى والاقتصادى للمنطقة. مناخ جعل منها تربة صالحة لنمو التطرف الدينى والزراعات الطائفية))

عاشت د. مرفت أكثر من 30 سنة فى لندن : عملت فى جامعة كنجز كوليديج . حاصلة على زمالة الكلية الملكية للأطباء النفسانيين والدكتوراه فى الطب النفسى ، ولكنها تحوّلت إلى دراسة تاريخ الحضارة المصرية، خاصة بعد أن سألت ابن جارتها الانجليزية ((نفسك تكون إيه لما تكبر يا حبيبى)) فقال الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ((نفسى أكون عالم مصريات)) أما الواقعة الثانية فكان حديث سائق تاكسى إنجليزى معها عن مصر القديمة وأنّ 90% من الكتب فى مكتبته الخاصة عن الحضارة المصرية. وإيمانها العميق بجوهر حضارتنا – بعد الدراسة المتعمقة. كتبت عدة كتب عن التراث الحضارى والفلسفى لمصر القديمة. وعندما قررت الإقامة الدائمة فى مصر ، تفرّغت لمشروع تونا الجبل. فقاعة المحاضرات والمكتبة (متخصصة فى كل ما يتعلق بالتراث الخاص لمنطقة تونا الجبل) على نمط ما كان موجوداً فى مصر القديمة. وغرف استقبال الزوار (شاليهات) على الطراز المصرى القديم. والمبنى يتكوّن من 16 جناح أخذت أسماء فلاسفة

وكتاب لهم علاقة وطيدة بفكر وفلسفة هذا المكان ، الذى يحمل ((سمات معمارية محلية تنم عن أصالة المكان وتوحى بالجمال والروحانية ، حتى يكون بمثابة المنتجع أو الملاذ الفكرى المساعد على القراءة والكتابة والإبداع)) وتتمنى د. مرفت أن يُحقق مشروعها الأهداف التالية :

* خلق بيئة ثقافية متميزة تتبنى العقول الإبداعية من أبناء المنطقة ورعايتهم وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من موارد ثقافية وتدريب .

* تفعيل الوعى بتراث مصر الحضارى وإظهار مقوماته والدور الذى يمكن أن يقوم به فى ربط وجدان المصرى المعاصر بماضيه ، وتحقيق النهضة بالتعاون والحوار بين مختلف الحضارات .

* الإهتمام بالسياحة الثقافية التنموية رفيعة المستوى ، لتعميق الوعى بالقيمة الأثرية والتاريخية للموقع وسكانه، بحيث يُصبح العائد المادى للسياحة مصدرًا للنهوض الثقافى والاقتصادى ، وهو يُحقق التنمية المستدامة ، خاصة لأهالى المنطقة.

* تشجيع الحوار بين أبناء شعبنا ، بترسيخ مبدأ (المواطنة) من خلال رحلات للطلاب .

* تشجيع الشباب على إحياء الحرف التقليدية ، مع خلق فرص عمل لهم .

* السعى ليصير الموقع (محمية طبيعية) بجانب كونه (محمية ثقافية) عن طريق زراعة الأشجار المصرية القديمة المُهددة بالانقراض واستخدام الطاقة الشمسية (رأيتُ جهازًا بالفعل فى الموقع لتشغيل المطبخ كبدائية) وإعادة تدوير المخلفات ومعالجتها لاستخدامها كأسمدة طبيعية ، للنهوض بالوعى والثقافة البيئية الخضراء.

* تنمية الوعى بالتراث المعمارى لمصر ، والمحافظة على ما تبقى فى المكان من أبنية لها سمات معمارية خاصة ، يتم استبدالها الآن بسرعة مخيفة بأبنية عشوائية تفتقد للجمال وللخصوصية. والعمل على تغيير النظرة السلبية. وتشجيع اكتساب مهارات البناء التقليدى الذى أصبح نادرًا . مع ملاحظة أن بناء مركز (هرموبولس) الجديد روعى فى تصميمه استخدام الأساليب التقليدية فى البناء ، من حيث مواد البناء والتصميم المعمارى .

قبل زيارتى لموقع تونا الجبل ، حدتنتى د. مرفت عبدالناصر كثيرًا عنه. ولكن كما

يقول شعبنا فى أمثاله ((اللى يسمع بودانه غير اللى يشوف بعنيه)) لذلك عندما دخلتُ

الموقع ، ومعى صديقى أ. سامى حرك (أحد مؤسسى حزب مصر الأُم) المرفوض من

لجنة صفوت الشريف لشئون الأحزاب ومن المصريين (العروبیین) زال تعب السفر

بقطار (القشاش المكيف) الذى قطع المسافة من القاهرة إلى مدينة ملوى فى خمس ساعات

وأربعين دقيقة ، فى حين أن السيارة تقطعه فى ثلاث ساعات ونصف على أكثر تقدير.

المهم أن غبار السفر ومشقته انقشع ، كما لو أن بركات (تحوت) مسحّت على قلبينا بنورها

الروحى ، فحلتُ البهجة محل بؤس ونكد القطار القشاش المكيف ، إذ قبل الاقتراب من

الموقع رأينا فوق المبانى (أهرامات) وعندما دخلنا الموقع اكتشفنا أنها (قباب) فوق

المبانى وقد أخذتُ شكل الأهرامات المتجاورة ، وتُذكر المُشاهد بالأهرامات الثلاثة فى

منطقة الهرم بالجيزة. وهكذا فى كل ركن من أركان الموقع شعرنا بنبض تراث جدودنا.

وعندما حكيتُ لصديقى أن د. مرفت عانتُ كثيرًا فى الحصول على قطعة الأرض من

محافظة المنيا ، والاجراءات البيروقراطية المعقدة ، ومشكلة الحصول على ترخيص

بحفر بئر للمياه ، واستغلال المقاول والعمال لها ، وكيف أنها ضحّت بمخدراتها طوال

ثلاثين عامًا فى لندن ، وأنها كانت تنام (وحدها) فى هذه الصحراء لمدة ثلاث سنوات،

حتى تم الافتتاح أخيرًا ، فهتف صديقى (هذه هى معانى البطولة والنبيل الإنسانى بلا دنى

مبالغة) وكان تعقيبى : معك حق لأن ما قامت به هو عمل مؤسسى ، أى عمل لا تنهض به

وتتولاه وتُموله وترعاه إلا مؤسسة كبيرة ، فكيف تحملت د. مرفت (كل) هذا الجهد

وحدها ؟ لذلك فإننى أناشد السيد محافظ المنيا ووزارة الثقافة وقطاع الآثار، وقطاع

السياحة. وكل من لا يزال فى قلبه نبض الحضارة المصرية. وكل من يتمنى

لمصر المستقبل الازدهار والرقى الحضارى والمادى، عليهم أن يُسارعوا ب (احتضان)

مركز هر موبولس الترائى وتقدفم فء المساعءة (كل حسب قءرته وموقعه) فءا كنا (بءق)
نستءق الانتساب لءءوءنا الءفن أءءوا البشرفة أقوى القوانفن (الضمفر) .
